

الانزياح الفونيمي و المونيمي في الشعر الثوري الجزائري

محمد العيد آل خليفة - نموذجاً -

L'écart Phonémique et Monamada dans la poésie révolutionnaire algérienne

Mohammed Eid Al Khalifa-modèle

جامعة الشلف / الجزائر



د. مجيد هارون

الملخص بالعربية:

الانزياح ظاهرة جمالية حديثة في شعرنا العربي، تأتي لأغراض متنوعة منها التّحريض والتّوكيد وكشف اللّبس...، وقد تأتي لرفع الرّتبة والملل ولمنع الكلام من أن يضيع في طيّات ماسبقه، فحسن وقع الصوتي منه في الأنفس يقوم على توالي الأصوات. وهذا ما نجده عند بعض شعراء ثورتنا المظفّرة وعلى رأسهم سراج الشعب منير طريق النّصر محمد العيد آل خليفة الذي لم يتخلّ لحظة عن الدّفاع عن وطنه ولم يحدّ يوماً عن الهدف، فجند قلمه لخدمة قضية وطنه مستخدماً شعره سلاحاً ليزيد من عزم شعبه بخروجه عن المألوف عن طريق تخريجات إيقاعية اعتماداً على ترديد بعض الأصوات والكلم والجمل والمعاني ليذكر ويؤكد وينبّه ويقرّر ويتردّد الغفلة. هذا ما اهتمنا به في بحثنا إذ تطرقنا إلى الانزياح بنوعيه الفونيمي والمونيمي مركّزين على التّجانس بين الأصوات وتكرارها ثم ربطناها بالجانب الدلالي ومن ذلك إلى الانزياح المونيمي انطلاقاً من تقسيمات عروضية وتركيبية ومعنوية مع احترام شرط العدل بينها وصولاً إلى الموازنة المأصلية محاولين استنطاق بعض من مقاطعه الشعريّة كنماذج لفهم العلاقة بين الملقّي والمتلقّي.

الكلمات المفتاحية بالعربية:

الانزياح. الأصوات. الإيقاع. المعاني. الفونيم. المونيم. التّجانس. التكرار. الجهر. الهمس. الدلالة. العروض. التركيب. الملقّي. المتلقّي.

الملخص بالفرنسية:

la répétition est un phénomène constituant une esthétique unique de la poésie arabe, un phénomène que les racines anciennes et héritées de l'époque préislamique venant d'inciter ou d'affirmer, ou de révéler la confusion,

estvenu de lever la monotonie et l'ennui et à empêcherdiscours qui se perddans les plis de qui l'aprécedé, heureuxsigné en eux-mêmesbaséssurune succession de sons par le raffinage (bonne création). C'estceque nous trouvonslorsquecertainspoètes de notreévolutiontrionphante, menéepar la personne de (Mohammed Eid Al-Khalifa), pas renoncé à défendreleur moment et ne limitait pas la fin des jours, le recrute pour la cause de son à l'aide de son arme pour résoudre la Division, vousrépétezcertains sons et les mots, les expressions et les significations mentionnées et confirme et alertes et décidez et expulse négligence, ainsiquedansnosrecherches, nous avonsconstatéque les plupart des types répétitifsarrêtentquelques sorties, les caractères et les qualités et puisontl'aspectsémantique à certains du comtépoétiquemise en douteCommemodèles pour comprendre la relation entre l'esprit (récitant / électeur) et le récepteur (le cœur de l'auditeur) et le sensgénéral de sespoèmes (la sémantiquesouhaitée).

Les mots cles

L'écart. Sons. Rythme. Signification. Phonème. Monam. Homogénéité. Répétition. Prendre la parole. Chuchotement. Signification. Le destinataire...

تمهيد:

إنَّ أوَّل ما يلحظه الدّارس للأدب الجزائري الحديث هو اتّجاهه الى الشّعب وتناول قضاياها ابّان الاحتلال أو بعد الاستقلال، وحين يشار إلى الأدباء الثّوريين في الجزائر نتّجه صوب **محمد العيد آل خليفة** كونه أحد روّاد الشّعر الوطني والثّوري، فروائع أفكاره الشّعريّة أنارت للشّعب درب تحقيق النّصر والحرية، لذا آثرنا الغوص في بعض مقاطعه الشّعريّة محاولين إستنطاقها وإماطة اللّثام عن بعض ما يختلجها من أسرار صوتيّة **كالمكرورات** وصولا الى الدّلالة المنشودة أنذاك، فمحور دراستنا يقوم على المتتاليات الصوتيّة من تتابع لمخارج الحروف وصفاتها وكذا المتناظرات الصوتيّة بين الحروف والكلمات والجمل وصولا إلى التّكامل الدّلالي بين العقل والحس، فالمتنبّع لكلم اللّغة العربيّة والمتأمّل في معانيها يجد في غالب الأمر تطابقاً بين الأصوات والمعنى المؤدّي، لذا وقع اختيّرنا على أهم المقاطع الشّعريّة ذات النّظم الفريد والتّكرار المعيد قصد إحصاء وتحليل ما تحمله بين طياتها.

يمثّل التّكرير أبرز التّقنيات المسيطرة في الشّعر العربي الحديث قصد طبع فضاءاته بضربٍ من الإيقاع الذي ينحو باللّغة نحو الكثافة والإنسجام فهو "أبلغ من التّأكيد، وهو من محاسن الفصاحة خلافاً لبعض من غلط"¹. **فالتّكرير لغة مصدر** "كرّر إذا ردّد وأعاد"²، والإعادة هنا ليست بالمعنى السّلبى بل لها من الأغراض الإيجابية ما قد نتعرّض إليه لاحقاً، **أما اصطلاحاً**: "فهو والمجاورة فنّ واحد"³، إذ المجاورة تردّد لفظتين ووقوع كلّ واحدة منهما بجانب الأخرى أو قريباً منها من غير أن تكون إحداها لغو لا يحتاج إليها، وما يسترعى انتباهنا خلال البحث هو التّكرار داخل النّصوص الشّعريّة **لمحمد العيد آل خليفة** وماله من فوائد عظيمة. والتّكرار في القصيدة الحديثة يقوم بوظيفة إيجابية بارزة، وتتعدّد أشكاله وصوره بتعدّد الهدف الإيحائي الذي يروم إليه الشّاعر، وتتراوح هذه الأشكال ما بين التّكرار

البسيط الذي لا يتجاوز تكرار لفظة معينة أو عبارة معينة بدون تغيير، وبين أشكال أخرى أكثر تركيباً وتعقيداً، يتصرف فيها الشاعر في العنصر المكرر بحيث تغدو أقوى إيحاءً. وهو أيضاً من الوسائل اللغوية التي يمكن أن تؤدي في القصيدة دوراً تعبيرياً واضحاً، فتكرار لفظة ما أو عبارة ما يوحي بشكل أولي إلى سيطرة هذا العنصر المكرر والحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق في أفق رؤياه من لحظة لأخرى. وقد كان للتجديد في القصيدة العربية الحديثة أثره في بروز صور جديدة للتكرار سنراها لاحقاً.

• الانزياح الفونيمي:

أ-التجانس الصوتي:

وفي هذا المجال علينا حقاً إدخال البلاغة، بلاغة اللفظ وبلاغة المعنى وجرس الصوت وموسيقاه فقد تفتن بعض النقاد القدامى إلى قضية الجرس الصوتي وعلاقتها بالمعنى فأشاروا إلى: "تناسب الألفاظ بين الكلمات والجمل من خلال ائتلاف الحروف وتناسبها... ويعدّ التناسب اللفظي عند اللغويين والنقاد القدامى إرهاصاً للعناية بالجرس الصوتي وأثره الدلالي والإيقاعي في النص الشعري"⁴ وطال الحديث آنذاك عن تحديد ماهية هذه القضية، فما الذي قد نعنيه بالجرس الصوتي أو الجناس الصوتي؟.

لقد نظر إليه عبد الرحمن مبروك على أنه: "هو مجموعة الأصوات المتشابهة التي تتكرر في النص، ويحدث تكرارها موسيقى إيقاعية تكون ذات أثر فعال في جماليات النص وأبعاده الدلالية"⁵، وقد نجد هذا الأخير يأخذ بعداً آخر ومساقاً آخر داخل النص الشعري وذلك لما يحدثه من ترانيم إيقاعية متناسبة ومتماثلة، " فعلى بعض الكلمات أن تتناسب في صفاتها مثل أن تكون إحداها مشتقة من الأخرى مع تغاير المعنيين من جهة أو جهات أو تتماثل أوزان الكلام أو تتوازن مقاطعها، وهذه التقنية تسمى (التقنية المتقنة)"⁶. فإذا توصل إليها صاحب الأثر الأدبي وأتقنها يكون بذلك قد حقق هدفه المنشود ألا وهو الانسجام اللفظي والمعنوي داخل النص .

ب-التكرار الصوتي:

يعدّ تكرار الحروف صورة من صور التكرار اللفظية الشائعة في شعرنا العربي الثوري، وله مزية سمعية وأخرى فكرية: الأولى ترجع إلى موسيقاها، والثانية إلى معناها. ولا يعدّ تكرار الحروف قبيحاً إلا حين يبالغ فيه، وحين يقع في مواضع من الكلمات يجعل النطق بها عسيراً، فالمهارة هنا تكون في حسن توزيع الحرف حين يتكرر وأمثلتنا عنه: أ/ الأصوات المجهورة: ورد هذا الصنف من الأصوات متماشياً والموضوع العام للشعر الثوري، فلقد سيطرت هذه الصفة على حوالي 82.87% من المقاطع كلها.

اللام: مثل قوله: دمدم الطبل للنفير فثرنا وهزنا البلا كالزلزال.

النون: في قوله: نحن جيش التحرير جند النضال نحن أسد الفدى نمور النزال

ب/ الأصوات المهموسة: وردت هذه الأصوات متفاوتة، لم تسيطر إلا على حوالي 17.12% من المقاطع وأهمها:

التاء: قوله: متى توفي العهود فقد مللنا تساؤلنا متى توفي الوعود

الفاء: قوله: صاف رضى وألق رفا يا وفد بوركت وفدا.

ت/ الأصوات الانطلاقية: الألف: إذ ورد 131 مرة بحوالي 41.32%، فقد اكتسح المساحة الكبرى في المقاطع الشعرية. فوجوده لا يقلّ عن أربع مرّات في البيت الواحد، ومن خصائصه لفت انتباه المستمع إلى كلام الشاعر، فهو تحذير وتنبية وإيقاظ للغافل. فالألف ارتكازيّ مثل: نأبى، أمرؤ، كما أنّه مساعد في إطالة الفترة الزمنية للمدود لأنّها في الأصل ليست إلّا "إشباع في كمية الهواء الصّادر بالنسبة للفتحة"⁷. الأمر الذي أضفى على شعره مسحة جمالية مثل: تجاهل، تناسي، طال، فلمس حضوره بكثرة في قوله:

واتخذنا من الجبال قـلـاعا نقرع السمع بالصدى كالجبال
ولنقم من رقادنا فـهو عار هل يفيد الرقاد غير الكساد

• الانزياح المونيمي:

أ- التقسيم والتعادل العروضي:

فإذا ما نظرنا إلى العناصر البانية للإيقاع لا نلفيها تنحصر في دائرة النّبر أو التّغيم فحسب فالتّجيس والتّرصيع والتّطريز والتّكرير والتّرديد والتّسجيع والتّقسيم من بين العناصر المكوّنة للإيقاع في البناء الشعري، وهي عناصر ينبغي أن ينظر إليها من زاويتين:

أولاً: الموقع العروضي: حيث تشارك هذه العناصر في البناء العام للوزن المجرد كأبيّ عنصر آخر من عناصر اللّغة فيتحوّل الوزن إلى بيت.

ثانياً: الموقع التركيبي: الذي يدخل العناصر نفسها في بناء التركيب، وبالنّظر إلى مواقع الأصوات من الكلمات يتحوّل التركيب التّحوي إلى سجع أو ترصيع... "8. فكلّما فتشنا في هذا العنصر اتّضحت لنا الرّؤى أكثر فأكثر. وما يجدر بنا الإشارة إليه هاهنا هو أنّه "لا تخلو لغة من إيقاع، وليس وجود الوزن شرطاً لازماً لتحقيق هذا الإيقاع، ذلك أنّ الوزن الشعري هو في الغالب ناتج عن تجمّع خصائص صوتية معينة في لغته، بمعنى أنّه ناتج خصائص إيقاعية لا يعقل أن نسلبه تشكّله وتجذّده عن جذره اللّغوي" 9، فالخصائص الأصلية في هذا الجذر أكثر حيوية منه لوثاقة الصّلة باللّغة وأدائها "بل وتتعدّد صورته بدايةً بالتشاكل الصّوتي وتكراراته وفي التكرارات المقطعية ثمّ ظاهرتي النّبر والتّغيم اللّغويين" 10.

إذا فليس ضرورياً أن نربط الإيقاع بالوزن كون الأوّل عالمي معنوي وحسّي أمّا الثّاني فعربي مادي، مع أنّ اجتماعهما هو ما يعطي اللّمسة الإيقاعية، فهذا الأخير يتدفّق من النصّ تدفّق الماء العذب الرّقراق من الغدير ليصل إلى المتلقي وذلك ما توحى به خلاياه وأنسجته المشكّلة له.

ب- التقسيم والتعادل التركيبي:

يعتمد هذا التقسيم أساساً على التعادل بين الكلم والجمل بتكرارها ضمن السياق يعدّ تكرار الكلم من أبسط أنواع التكرار وأكثرها شيوعاً في الشعر العربي قديمه وحديثه. وقد تحدثت نازك الملائكة عن نوع من أنواعه قائلة: "ولعلّ أبسط ألوان التكرار تكرار كلمة واحدة في أوّل كلّ بيت من مجموعة أبيات متتالية في قصيدة وهو لونٌ شائع في شعرنا المعاصر يتكئ إليه أحياناً صغار الشعراء في محاولتهم تهيئة الجوّ الموسيقي لقصائدهم الرديئة". وتعني بذلك التكرار

الاستهلاكي للكلمات حيث حرص الشعراء على تكرار أسماء حبيباتهم واعادتها في قصائدهمحتى إرتبط قسم منهم بتلك الأسماء، فهو عندما يركّز اهتمامه على اسم معين يجعله النقطة "المركزية" التي تتمحور حولها القصيدة. و ظاهرة التكرار حينما تلوح في النص الأدبي الراقي فإنها لا تلوح عبثاً؛ بل تؤدي الدراسة الداخلية للنص إلى الوقوف على بواعث هذا التكرار الذي لا يأتي عفويّاً بل يقصده الشاعر؛ أي يقصده قصداً فنياً غير عامد أو ظاهر، بل قد يصعب على الناقد الاهتداء إلى دوافع هذا التكرار عند الشاعر ونجد لتكرار الألفاظ في أشعار محمد العيد آل خليفة أغراض بلاغية نوردّها وفق أهمّ الكلمات المكرورة فنجد:

- نرود/نرود في قوله:ركبنا للقضية كل صعب نرود من المراجع ما نرود(الغرض: تكثيف المعنى وتعدده)
- الجبّال/الجبّال في قوله:واتخذنا من الجبال قلاعافزع السمع بالصدى كالجبّال(الغرض: التعظيم والتهويل)
- يسود/يسود في قوله:بإخـلاص واقدام وعلم يسود على البرية من يسود (الغرض: التقرير)
- الطغاة/الطغاة في قوله:نحن رغم الطغاة في الأرض أحرا رواي خالنا الطغاة عبيدا (الغرض: التأكيد والتذكير)
- وفد/وفد في قوله:صادف رضى وألـسق رفا يا وفد بوركـت وفدا (الغرض: التعظيم)
- خير/خير، حق/حق في قوله:أناديك للخير خير النداء وأوصيك بالحق حق الوصية(الغرض: التنبيه والتحذير)

ففي الأبيات السابقة نجد الشاعر يؤكد أنّ الشعب الجزائري خلّق ليعيش حرّاً وينعم في أجواء الحرية، لكنّ الاستعمار أرادّه عبداً فإذ به يفاجئ بشعب صلب وقويّ الإيمان، وها هو شاعرنا الذي رفض أن تبقى قضية شعبه في طيّ النسيان، فيطلب من شعبه أن ينتزع حقوقه وفي الآن نفسه ينبّه ويحذّر من غدر الاستعمار. وبذلك نجد أنّ تكرار أيّ لفظ لم يكن إعتباطياً بل لضرورة إيحائية ملحة.

أمّا عن هذا النوع من التكرار أشارت إليه نازك الملائكة أنّه أقلّ في شعرنا المعاصر لصعوبة التحكّم في زمامه، وتكثر نماذج في الشعر الجاهلي. وهو من صور التكرار الشائعة في ديوان محمد العيد آل خليفة، ولكنّه أقلّ من تكرار الكلمة. ومن صوره التي جاءت في الديوان تكرار المضاف والمضاف إليه، والجار والمجرور، والجمل، وشطر البيت وهو تكرار يعكس الأهمية التي يؤلّيها المتكلّم لمضمون تلك الجمل المكرّرة باعتبارها مفتاحاً لفهم المضمون العام الذي يتوخّاه المتكلّم، إضافة إلى ما تحقّقه من توازن هندسيّ وعاطفيّ بين الكلام ومعناه. فلو تجوّلت بسمعك في نواحي قصائده لبهرك ما تستلذّ به، هذا التكرار الذي يتوشّح بجملته من المعاني تجري في شعره أهمّها :

- ليس حقاً/ليس حقاً في قوله:ليس حقاً أن تستريحني ويشقى ليس حقاً أن تسكني ويميدا
- فما هذا /ما هذا في قوله: فما هذا التجاهل والتناسي وما هذا التتكرار والوجود
- وثبنا/وثبنا في قوله: وثبنا عليها كالنمور جراءة وثبنا كالأسد الغاب نرعها زأرا

ت-التقسيم والتعادل المعنوي:

لا يقتصر التكرار على عبارة معينة في القصيدة؛ بل يتعداها إلى تكرار للمعنى قصد تأكيده، فهو المرتكز الأساس الذي يقوم عليه البناء الدلالي للنص فضلا عن المهمة التغمية التي يؤديها التكرار وهذا النوع نجده حاضرا في غالبية قصائد محمد العيد آل خليفة وأمثلتنا عن ذلك قوله:

- السلم / الهدوء في قوله: نبتغي السلم والهدوء ونأبى أن يكاد أمرؤ لنا أويكيدا
- تستريح/تسكني، يشقى/يميدافي قوله: ليس حقا أن تستريح ويشقى ليس حقا أن تسكني ويميدا
- العهد/الوعود في قوله: متى توفى العهد فقد مللنا تساؤلنا متى توفى الوعود
- التجاهل/التناسي، التكرار/الجود في قوله: فما هذا التجاهل والتناسي وما هذا التكرار والجود
- قم/انهض في قوله: فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض بلا مهل فقد طال القعود
- البلاء/الأهوال في قوله: نحن صدق عند اللقاء وصبر في اشتداد البلاء والأهوال
- عملاق/جبار في قوله: نوفمبر عملاق الشهور بياسه وجبارها تحني الرؤوس له جبرا

هكذا نرى كيف انتقى الشاعر من الكلمات ما أوقعت أصواتها على النفس البشرية تفاعلاً يوحى بحرارة آلمة تارة وصمود وانفعال وهمة تارة أخرى، إذ أنه أكثر من الأصوات المجهورة الانطلاقية لنصاعتها ووضوحها قصد إعطاء قيم تمييزية وتوضيحية، ومن ذلك تنبيه المستمع "المتلقي" لما يمكنه فعله اقتراحاً بجسدية الأصوات ووقعها على الأذن وصولاً إلى القلب. وما يُحقِّق فعل التكرار من رسائل ووظائف وأبعاد فنية وجمالية وتوصيلية يجلّ عن الإحصاء والوصف والحصص تنوع مواقعه وتمظهراته وكثرة نماذج الشئ التي تُغري الباحث فتدفعه إلى قراءته أكثر وبأسئلة أخرى جديدة وضمن سياقات وآليات متجددات غير هذه التي لا يسمح بها الوقت وحجم الكتابة هاهنا في هذه الدراسة. فها نحن نخلص إلى مجموعة من النتائج المتواضعة أهمها:

* أن هناك انزياحا فونيميا انطلاقاً من التجانس بين الأصوات وتكرارها.

* الصوت يبوّح لنا بأشياء توارت من خلف حجاب الصمت، وهذا ما لمسناه من خلال قصائد محمد العيد آل خليفة وبالتالي أثره على نفسية المستمع والمتلقي.

* تعدد المكرورات من الأنسجة الأساسية التي توشح النصوص الشعرية معبرة عن ما خفي وما ظهر .

* أن هناك انزياحا مونيميا انطلاقاً من تقسيمات عروضية وتركيبية ومعنوية مع احترام شرط العدل بين الأصوات وتكرارها.

* إنه لا حشو في قصائد محمد العيد آل خليفة، فكل كلمة موضوعة في النظم لفوائد نغمية ودلالية فإذا أنقصت حركة أو حرف أو لفظ أو جملة اختلّ التوازن ونقصت المعاني وشذّ الإيقاع.

* لم يقع التكرير في شعر محمد العيد آل خليفة في اللفظ والمعنى معاً أبداً بل هو إما:

أ- تكرار لفظ دون معنى. ب- تكرار معنى دون لفظ، وهذا هو الإبداع بعينه.

ثبت المصادر والمراجع:

- عمر خليفة ابن إدريس. البنية الإيقاعية في شعر البحتري. ط02. دار الأمان. 2010م. ص 38. ص 39.
- كمال أحمد غنيم، رائد الداية: جماليات الموسيقى في النصّ القرآني، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، فلسطين، العدد 02 / 2012م، ص 34.
- أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تح: محمد حبيب خوجة. ط3. دار الغرب الإسلامي. بيروت: 1986 ص 222
- الزركشي محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث القاهرة ، 2006م، ج3، ص 09.
- محمد رضا العيد بن محمد علي بن خليفة حمو: الديوان /ت: 1399هـ . دار الهدى، عين مليلة - الجزائر. 2010م.
- محمد فكري الجزار: لسانيات الاختلاف-الخصائص الجمالية لمستويات بناء النصّ في شعر الحداثة-. ط1. إيتراك للطباعة والنشر. القاهرة: 2001. ص 52.
- مراد عبد الرحمن مبروك: من الصوت إلى النصّ. ص 66.

* محمد رضا العيد بن محمد علي بن خليفة حمو: الديوان

¹ الزركشي محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 09.

² نفسه، ج3، ص 627.

³ كمال أحمد غنيم، رائد الداية: جماليات الموسيقى في النصّ القرآني، ص 34.

⁴ مراد عبد الرحمن مبروك: من الصوت إلى النصّ. ص 66.

⁵ نفسه . ص 66. ص 67.

⁶ أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ص 222

⁷ نفسه. ص 13

⁸ عمر خليفة ابن إدريس. البنية الإيقاعية في شعر البحتري. ص 38. ص 39.

⁹ محمد فكري الجزار: لسانيات الاختلاف-الخصائص الجمالية لمستويات بناء النصّ في شعر الحداثة-. ص 52.

¹⁰ المرجع نفسه: ص 53.